

التي تمر بها أمته ، وأذكر بهذه المناسبة أن الحشني^(٤) يتحدثنا عن قاض من قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر عرض لتلك الأيام فوصفها « بفساد الزمان ، واختيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التي لاتبين له حقيقتها ، ولا يُكشف له وجهها » . وعندما تحدث الحشني نفسه عن هذا القاضي ، وصفه بأن « مذاهبه محمودة ، وسيرته حسنة ، وهديه جميلا ، وكان له من الإقار والإخبارات ما بدَّ به أهل زمانه ، وفات فيه أهل عصره » . ثم يضيف : إن هذه الصفات الأندلسية تلاشت في أيام عبد الرحمن الناصر . وفيها نجد كثيراً من السادة الذين احتفظوا بطابعهم اللاتيني ، ومن ثم فهم ليسوا عربياً ، واصلوا ثوراتهم حتى ذلك الوقت ، ثم استنزلوا من حصونهم ، وأصبحوا معاهدين ، وأصحاب نفوذ في قرطبة ، وأباحوا لأنفسهم رخصاً لا يرتضيها قانون الدولة الإسلامي ، وبلغ الأمر حد أن اسم شخص إسباني ، ينحدر من أب وأم لاتينيين ، رنّ في عاصمة الخلافة الإسلامية ، كمرشح لمنصب قاضي الجماعة فأثار استنكار المسلمين الطيبين بعنف . أى فقيه تقي من قبيلة قريش الشريفة لا يفعل فكراً بالأحداث السياسية في عهد عبد الرحمن الناصر ، حين يرى اللاتينيين أصبحوا سادة ، ويدفعون الأشراف العرب الأصلاء ، وكانوا حتى هذه اللحظة يسرون السياسة القرطبية ، إلى مكان ثانوي مغمور ، حامل الذكر؟ ويرى الأسر الإسبانية الحديثة العراقية ، وليس في عروقها نقطة من دم عربي ، تخلف القرشيين في المناصب السياسية والحرية في إمبراطورية بني أمية ؟ مثل هذه الأيام ، فيما يرى أى قرشي ، بالغة الخطر على مستقبل الجماعة الإسلامية ، وينبئُ بنهاية حكمها في شبه الجزيرة إنها أسوأ ما يمكن أن يتصور من الأيام ! والحق أن الفقيه الشريف الذي كتب هذا الجانب من المدونة كان واقفاً تحت هذا التأثير ، ودليلنا عليه موقفه من عبد الرحمن الناصر فيما يتصل بهذه القضية ، فبعد أن أتى على الانتصارات الشخصية العظيمة التي حققها الخليفة أضاف ، وأصاب في ذلك كبد الحقيقة : « ولكنه - عفا الله عنه - مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب ، فولى للهوى لا للغناء واستمد بغير الكفاءة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأندال ، كنتجدة الحيرى وأصحابه

(٤) تاريخ قضاة قرطبة ، ونصه العربي وترجمته إلى الأسبانية ، وقام بها غوليان وبيرا نشرها في مدريد عام ١٩١٤